عدد خاص

١٤

دراسات في العلوم الإسلامية

مجلة محكّمة تصدرها
كلية الدراسات الإسلاميّة
"جامعة المقاصد في بيروت"

شتاء وربيع
١٤٤١هـ ٢٠٢٠م

المقاصد

دورية ثقافية تصدر عن جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت





الدول البلقانية:
من القومية إلى الاندماج الأوروبي
بظل نمو الإسلام السياسي!

د. خالد ممدوح العزي
باحث مختص بالعلاقات الدولية والسياسة الخارجية

المقاصد
دورية ثقافية محكمة

يطرح البحث مشكلة الاندماج لمسلمي البلقان والتحديات التي تواجها شعوب هذه المنطقة بظل العولمة والغاء الحدود من جهة، وصعود الإسلام السياسي من جهة أخرى.

تمهيد:

عندما نفكر في الأقليات، تواجهنا صعوبات، وهي ليست بالضرورة صعوبات معرفية، بل هي صعوبات ذات طبيعة سياسية. يكتب د. رحال بوبريك[1]: «مع إنشاء الدول الحديثة كانت مسألة السيادة والوحدة هي الهاجس الأول وأي حديث عن أقليات داخل الدولة كان يُنظَر له بحذر بل بشبهة على أنه دعوة انفصالية أو تهديد لوحدة الأمة والدولة. وحتى في الدول العريقة في تقاليدها الديمقراطية في أوروبا الغربية، خاصة فرنسا الدولة ذات التقاليد اليعقوبية في تدبير الحكم، فإن مسألة الأقليات لم تكن مطروحة انطلاقاً من كون جميع المواطنين سواسية أمام القانون ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات.

(١) د. رحال بربريك، الأقليات الإثنية في زمن الانتقال الديمقراطي:
http://studies.aljazeera.net/files/arabworlddemocracy/2013/01/2013124122841440101.htm

تعريف الأقليات في البلقان:

بالرغم الصعوبات والعوائق في التعريف لا تمنعنا من تبني تعريف يكاد يكون عليه إجماع لكونه صادراً عن اللجنة الفرعية لمحاربة التمييز وحماية الأقليات التابعة للأمم المتحدة، وهو تعريف مفاده أن مجموعات أشخاص يمكن وصفهم بأقلية حين تتوفر **أربعة شروط**، وهي:

١ ـ ضعف عددي مقارنة بالعدد الإجمالي للسكان.

٢ ـ وضعية غير مهيمنة داخل الدولة.

٣ ـ ميزات إثنية ولغوية ودينية مشتركة.

٤ ـ المواطنة في دولة الإقامة.

هذا فضلاً عن كون المواثيق الدولية لا تقف عند تعريف الأقليات، بل تتجاوزه للدعوة إلى احترام حقوقها، فالبند السابع والعشرون للميثاق الدولي المتعلق بالحقوق السياسية والمدنية الموقع في نيويورك بتاريخ ١٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩٦٦، ينص على ما يلي «داخل الدول التي توجد فيها أقليات إثنية، أو دينية، أو لغوية، لا يمكن حرمان الأفراد المنتمين لهذه الأقليات من حقهم في حياتهم الثقافية، ونشر وممارسة دينهم أو استعمال لغتهم مع أفراد مجموعتهم».

بعد عقد من الحروب والصراعات من عام (١٩٩١ ـ ١٩٩٩)، انتهت «الجمهورية الاشتراكية الفيدرالية اليوغسلافية» إلى الانهيار[١]. وما زالت التطورات والأحداث تتسارع في هذا البلد مما يترك العديد من الاسئلة، **ومنها:**

هل ثمة احتمال لتجديد الصراعات القديمة بين الشعوب والدول اليوغسلافية (السلافية الجنوبية)[٢]، إذا ما تغيرت الأوضاع القائمة وحلت ظروف غير مواتية؟

---

(١) بدأ تفكيك الفيدرالية اليوغسلافية بانفصال سلوفينا وكرواتيا في (٢٧ يونيو ١٩٩١م)، تبعه انفصال مكدونيا (٨ سبتمبر ١٩٩١م)، ثم جمهورية الجبل الاسود (٣ يونيو، ٢٠٠٦م) وأخيراً انفصال إقليم كوسوفو عن صربيا (١٧ فبراير، ٢٠٠٨م).

(٢) تعني كلمة يوغ باللغات السلافية الجنوب، وعلية فمفردة يوغوسلاف تعني «السلافيون الجنوبيون».

أم أن هناك إمكانية واقعية للعيش المشترك ولإقامة علاقات الصداقة وحسن الجوار بين تلك الشعوب وأبرزها كرواتيا وصربيا؟ في تقييمه للأوضاع الراهنة للشعوب اليوغسلافية وللعلاقات القائمة بينها؛ أي: الشعوب التي تكوّنت منها الفيدرالية اليوغسلافية عبر الحقبة الاشتراكية (١٩٤٥ ـ ١٩٩١)[١]، يطرح دوشان بيلاندجيتش إجابته على هذين السؤالين فيما يسميه بـ«الاجابة الفرضية» منطلقاً من أننا نشهد «ولادة الظروف والشروط الضرورية التي توفر الفرصة لإنهاء الصراعات التاريخية بين الشعوب اليوغسلافية وإقامة علاقات حسن الجوار الطبيعية على ذات المبادئ التي يقوم عليها الاتحاد الأوروبي وتستند رؤيته الفرضية هذه على **ركيزتين أساسيتين**:

١ ـ العملية القائمة حالياً في تشكيل «نظام أوروبي جديد»، يقصد منظومة الاتحاد الأوروبي تحديداً وربما حلف شمال الأطلسي أيضاً[٢].

٢ ـ التغيرات الدرامية التي حلّت بالدول اليوغسلافية الناشئة «أي: تلك التي قامت بعد تفكيك يوغسلافيا الاتحادية» حيث «سيتم بالتأكيد، ولو ببطء، تدمير الأيديولوجيات القومية القديمة والموروثة ومفاهيم الدولة التي إنقرض عهدها حيث أخذت تولد قوى ديمقراطية»[٣]. أما الحجج التي يسوقها بيلاندجيتش في إسناد رؤيته الافتراضية هذه فتقبع في الماضي غير البعيد، من ناحية، وفي النتائج والآثار التي تمخضت عنها حروب التسعينات ١٩٩٠ ـ

---

(١) بلغ تعداد سكان يوغسلافيا لحظة إنهيارها عام ١٩٩١م ثلاثة وعشرون مليوناً و٤٧٢ ألفاً، وتشكلت آنذاك من ست جمهوريات، صربيا وكرواتيا وسلوفينا ومكدونيا والبوسنة والهرتسك وجمهورية الجبل الاسود، وإقليمي كوسوفو وفويفودينا اللذان كانا جزءً من جمهورية صربيا وفي الوقت ذاته شكل كل منهما «وحدة فيدرالية». وقد منح دستور البلاد لعام ١٩٧٤م كل من الجمهوريات صفة «الدولة» وحق الاستقلال؛ أي: الانفصال عن الدولة الاتحادية.

(٢) القوة الدافعة والمرشدة لأطروحة بيلاندجيتش هي اللحاق بالغرب، الذي يحدده بالاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة؛ كخيار وحيد أمام الشعب الكرواتي والشعوب السلافية الأخرى.

(٣) دوشان بيلاندجيتش: «الفيدرالية اليوغسلافية والهيمنة الصربية، مستقبل العلاقات، تجديد الصراعات أم علاقات الصداقة؟»، صحيفة «الفيسنيك» الكراوتية اليومية Vijesnik ٢١ نوفمبر ٢٠٠٦م.

١٩٩٩، من ناحية ثانية. كما تكمن في السياسات الإقليمية للاتحاد الأوروبي وسياسات الولايات المتحدة الأميركية إزاء جنوب شرق أوروبا. ويستدعي هذا السياق معالجة الأزمة والانهيار والحروب التي احتدمت على التراب اليوغسلافي.

السياق التاريخي للازمة اليوغسلافية:

لقد ساهم تفكك الاتحاد السوفياتي بظهور موجات كبيرة من الثورات الشعبية في دول البلقان للمطالبة بالحريات والاستقلال عن جمهورية يوغسلافيا الكبرى، كما يشير د. جمال واكيم: «بان سقوط جدار برلين، ساعد في اختفاء التوازن الدولي وترك فراغاً جيو - سياسيّاً وجيو - استراتجيّاً، مما ستتعرض لأزمات في المناطق الواقعة بين القلب والأطراف «البلقان، والقوقاز، وآسيا الوسطى»(١). ومع التغير الذي حصل في العام ١٩٩١ في أوروبا الشرقية كان البلقان مركزاً جديداً ومتجدداً للأزمات التي عصفت بالجزيرة»(٢). وربما حالة الانهيار والتفكك التي عانت منها يوغسلافيا ودولها في الحرب العالمية الأولى والثانية وفي ربيع الدول الشرقية يتناسب منطقيّاً مع عرض المؤرخ البريطاني أريك هوبزماوم في كتابه(٣) عصر التطرفات، ٢٠٠١، في عرضه التاريخي لتطور الأحداث والصراعات التي عصفت بالعالم منذ الحرب العالمية الأولى إلى ربيع الثورات العربية في مشاهد وحروب دموية أدت إلى فرض تغييرات تاريخية لسير الأحداث العالمية ورسم خرائط جدية لدول حديثة.

المشهد الدموي في تفكك يوغسلافيا:

جميعنا قرأ أو شاهد ما حدث في البوسنة من معارك ومذابح راح

(١) محمد م. الأرناؤوط، هاد الألبان، من البوسنة إلى سورية جريدة الحياة اللندنية، ١٥ آب، ٢٠١٣م.

(٢) موريال ميراك، فايسباغ وجمال واكيم، السياسة الخارجية التركية، تجاه الدول العظمة والبلاد العربية منذ عام ٢٠٠٢م، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠١٤م، ص٥٨ - ٥٩.

(٣) فواز الطرابلسي، الديمقراطية ثورة، رياض الريس للكتابة والنشر، بيروت، ٢٠١٢م، ص٩٤.

ضحيتها الآلاف من المواطنين المسلمين نتيجة للصراع الذي نشأ على خلفية عرقية عقائدية، وتكلل في نهاية المطاف بتسليم «راتكو ملاديتش» سفاح البوسنة(١) للمحكمة الدولية في لاهاي ليلقى جزاءه نتيجة للجرائم التي شارك فيها وأشرف عليها ضدّ المسلمين في البوسنة، وذلك في صفقة صربية أوروبية اعتبرت كمقدمة لانضمام صربيا للاتحاد الأوروبي، مع علمها المسبق بأنّها تسلم شبه إنسان؛ لأن راتكو مصاب بالعديد من الأمراض وليس من المتوقع أن يمتد به العمر طويلاً، لكنّها بالطبع خطوة مؤلمة بالنسبة للكثير من سكان صربيا المعروف عنهم التشدد والانتماء الكبير للوطن الكبير يوغسلافيا(٢). لقد افتتح انهيار الاتحاد السوفياتي(٣) عام ١٩٩١ توجهاً جديدة للولايات المتحدة لمتابعة الهيمنة على كل أنحاء العالم بما فيها دول البلقان تحت ذرائع مختلفة.

ومن تلك المرحلة رسمت الخارطة الجديدة لأوروبا الشرقية،و بدأت تخرج إلى العلن المشكلة الإثنية والمذهبية التي كانت وقود معركة دموية كانت رماد الحرب الباردة قد أخرجتها للعلن.

في الماضي وقعت دول البلقان في تحالف فكري ضمن المعسكر الاشتراكي المعادي للحلف الغربي وعاشت كل الإثنيات تحت حكم نظام الزعيم تيتو الذي كان مسيطراً على الشيوعية ذات النظام الاشتراكي الخاص، حسم الزعيم تيتو كل الأمور لصالح دولة الاتحاد والتي أطلق عليها اسم الاتحاد اليوغسلافي حتى أصبح مفهوم الاتحاد البلقاني للأغلبية وكأنه بعيد عن أوروبا وثقافتها وتاريخها وحاضرتها.

(١) أريك هوبزباوم عصر التطرفات القرن العشرين الوجيز (١٩١٤ - ١٩٩١م)، ترجمة: فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١١م.

(٢) راتكو ملاديتش:

http://www.aljazeera.net/news/pages/9edd7c93-6194-4f16-9067-3ab3fdd6b8c5

(٣) صربيا، اعتقال القائد العسكري السابق لصرب البوسنة راتكو ملاديتش، الخميس، ٢٦ مايو/ أيار، ٢٠١١م.

http://www.bbc.co.uk/arabic/worldnews/2011/05/110526_mladic_serbia_arrest.shtml

القصة الفعلية في البلقان بدأت عندما رفع الألبان في جنوب صربيا والجبل الأسود، وكوسوفو، ومقدونيا، واليونان العلم الألباني على أسطح منازلهم، ولم تكن تلك ردود الفعل الوحيدة؛ بل شفعوها بتظاهرات ثقافية وسياسية متنوعة في حركة قومية جديدة في طرح إعادة مفهوم ألبانيا الكبرى ذات الأغلبية المسلمة في وسط أوروبا المختلفة في الأعراق والمذاهب.

لقد بدأ تفكيك الفيدرالية اليوغسلافية بانفصال «سلوفينا» و«كرواتيا» في ٢٧ يونيو ١٩٩١، تبعه انفصال «مكدونيا» (٨ سبتمبر ١٩٩١)، ثم جمهورية «الجبل الأسود» (٣ يونيو ٢٠٠٦) وأخيراً انفصال إقليم «كوسوفو» عن صربيا (١٧ فبراير ٢٠٠٨).

يشير الباحث اللبناني محمد نور الدين: «بأن ألبان كوسوفو، مسلمون أو مسيحيون، كانوا يريدون أن يكونوا جزءاً متساوياً من حيث الوضع القانوني لإقليمهم، مع جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي السابق ولم يرفعوا قبل العام ١٩٨٩ أيّ مطلب للاستقلال الكامل. وكان أمام الكوسوفين أحد الخيارين الاستمرار بجمهورية مساوية للجمهوريات اليوغسلافية، أو التحول الى جمهورية ذات استقلال كامل. ولكن الذي حصل بأن الاتحاد اليوغسلافي قد تفكك، فيما لم يحترم الصرب نتائج الاستفتاء في كوسوفو وواصلوا سياسة الدمج والصهر والعنف ضد سكان الإقليم»[1].

إن المشكلة الذي يتطرق إليها محمد نور الدين في كتابه: «بأن الكوسوفيين لم يتمكّنوا من القبول بواقع جديد كون بلادهم جزءاً من جمهورية صربيا. فيما الصرب لا يردون مزيداً من التراجع عن صربيا الكبرى عقب انكساراتهم في البوسنة على يد البوسنيين والكروات والمجتمع الدولي. فالموقف الكوسوفي من مسألة الاستقلال شبه موحد وهم لا يختلفون إلا على أسلوب تحقيق الأهداف. فكان زعيم ألبان كوسوفو ورئيس الجمهورية لاحقاً الكاتب إبراهيم روغوفا يدعو إلى استقلال كوسوفو لاعتقاده بأن ألبان بلاده في

---

(١) موريال ميراك، فايسباغ وجمال واكيم، مرجع سابق، ص٨٤.

لحظة تاريخية للإمساك باستقلالهم ويجب أن لا يتخاذلوا»[1].

فالحديث عن ألبانيا الكبرى يعود بالأساس إلى عام ١٩٩٩، بعد حرب كوسوفو، حيث أعربت جهات مختلفة عن مخاوفها من أن تصبح كوسوفو جزءاً من ألبانيا، بعد طرد القوات الصربية منها عام ١٩٩٩، مما حدا بوزيرة الخارجية الأميركية السابقة مادلين أولبرايت إلى التحذير آنذاك من مغبة إعادة رسم خريطة البلقان على أسس عرقية، وقالت أثناء زيارة قصيرة للبلاد بعد حرب كوسوفو، «إن المجتمع الدولي لن يتسامح مع محاولات تأسيس ألبانيا الكبرى». وتحدثت وقتها نيابة عن الدول الأوروبية التي وافقت على مضض، على ضرب القوات الصربية بالقوة العسكرية تحت شعار التدخل الدولي للحماية الإنسانية[2]. وكان رئيس الوزراء الألباني السابق صالح بيريشا، قد دفع ثمن تطلعاته الألبانية، سنة ١٩٩٧ عندما تم تأليب المعارضة ضده، وأسقطت حكومته، وقد تعلم الدرس. فإذا كان الحديث عن شعوب البلقان، فإن ليس لها تاريخ طويل من العداء المتبادل والحروب، ففي عهد الدولة العثمانية، كان البلقان، ولمدة أربعة قرون متتابعة، يُعرف بـ«باكس أوتومانيكا Pax Ottomanica» بمنطقة الدولة العثماني، وعرفت المنطقة بالرغم من الاختلافات الدينية والحقوق الثقافية وحرية التحدث باللغة التي كانت تنتمي لها كل أثنية. أما ما عيشته المنطقة من صراعات يعود إلى تاريخ حديث تبع انسحاب العثمانيين من البلقان مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فأصبحت العلاقات البينية التي تربط دول شبه جزيرة البلقان بعضها البعض اليوم محمّلة بتجارب مريرة ودموية للصراعات التي عصفت بها خلال القرنين الماضيين والتي كانت تقوم بالأساس على استغلال الأيديولوجية والدين والانتماء إلى إثنيات مختلفة، وبقدر أهمية هذا المعطى الواقعي، فإن إلحاق كل دول البلقان بمنظومة الاتحاد الأوروبي يمثّل سبباً واقعياً لتجاوز

---

(١) محمد نور الدين، تركيا الجمهورية الحائرة «مقاربات في الدين والسياسة والعلاقات الخارجية»، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والوثيق، بيروت، ١٩٩٨م، ص٢٥٥.

(٢) محمد نور الدين، مرجع سابق، ص٢٦٥.

حالة الاحتقان السائدة بشكل فعّال وسريع[١] وإمام هذه المشكلة المتصاعدة في البلقان توقفت الكاتبة والمحللة السياسية التركية إلين كوجومان في مقالتها التي تعالج صعود الأيديولوجيات الحديثة[٢]. أما الباحث الألباني الدكتور منصور خليلي لجريدة الشرق الأوسط «كنا نعيش في دولة واحدة حتى مؤتمر لندن المشؤوم في سنة ١٩١٣ على أثر حرب البلقان الأولى (١٩١٢ ـ ١٩١٣) حين تمت إعادة رسم حدود دول المنطقة، وتوزيع أجزاء من ألبانيا على الدول المجاورة، لكننا لم ننس أننا شعب واحد، وأننا تعرضنا لمظلمة تاريخية كبرى، زادت بدورها من شعورنا بأننا شعب واحد، وأن جميع الألبان في المنطقة يشعرون الشعور نفسه، ولا يوجد شعب لديه من الوحدة والتلاحم والتعاطف كما بين الألبان».

ويلقي خليلي باللائمة على العهد الشيوعي الذي عمل على إضعاف الروابط القومية والدينية للشعب الألباني[٣]. وللعجيب عندما احتل الألمان والطليان يوغسلافيا عام ١٩٤١، فصلوا كرواتيا في الحال عن صربيا وأعلنوا استقلالها التام، ولما كانت كرواتيا مجاورة لإيطاليا وكان سكانها كاثوليكيين مما كاد أن يسجل عام ١٩٤١ حتى والوا أهلها إلى ألمانيا، فالشعب الكرواتي يكره الطليان كرهاً شديداً، أما الشعب الصربي، أرثوذكسي والكرواتي كاثوليكي، وبالرغم من أن الألمان يكرهون الروس كرهاً عنصريّاً واجتماعيّاً زادته النازية حده وانتشاراً، والذي كان ثمنه القتال الشرس بين الكروات والصرب بعد تفكك الدولة اليوغسلافية الحديثة في العام ١٩٩٠[٤]. ويحاول كامل مروه التأكيد على التشابه الغريب بين البلقان والدول العربية، فالبلقان

(١) جمال منصر، التدخل العسكري في فترة ما بعد الحرب الباردة من قوة التحالف إلى قوة فجر الأديسا رقم (٢٩)، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم، ٢٠١٢م، ص١٣٥.
(٢) ألين كوجومان، هل من انحسار لهذه الأيديولوجيات، الشرق الأوسط اللندنية، ٤ ديسمبر، ٢٠١٣م.
(٣) عبد الباقي خليفة، ألبانيا الكبرى حلم أم مشكلة، جريدة الشرق الأوسط اللندنية، ١٠ ديسمبر، ٢٠١٠م.
(٤) كامل مروة، بيروت، برلين، بيروت، دار نجيب الريس، لندن قبرص، ١٩٩١م، ص٢٤٢.

مزيجاً من الشرق والغرب وإن كان جوهره شرقيّاً أكثر منه غربيّاً[١].

المسلمون في البلقان:

عاشت الأقلية المسلمة في بعض دول البلقان بسبب انتشار المد الإسلامي وخاصة أثناء توسعات الدولة العثمانية حيث كانت تتوسع في مناطق البلقان وبحسب الباحث الألباني كريم المجاروي[٢] في دراسة أعدها لمركز الدراسات في الجزيرة: «يؤكد أنه لا توجد إحصاءات دقيقة حول عدد المسلمين في البلقان، لكن أكثر الترجيحات تحدد أعدادهم ما بين ٨,٥ إلى ١١ مليون نسمة، أو ما يعادل ١١ ـ ١٥٪ من مجموع سكان المنطقة البالغ ٧٧ مليون نسمة.

يشكّل مسلمو ألبانيا وكوسوفو أغلبية مطلقة في بلديهما، في حين تبلغ نسبة مسلمي البوسنة أغلبية نسبية مقارنة بأعداد الصرب والكروات الذين يقاسمونهم نفس الأرض، والمسلمون أغلبية أيضاً في إقليم السنجق الذي لا يتمتع باستقلال ذاتي، وقد أصبح مسلمو السنجق يتوزعون على دولتين، هما: صربيا والجبل الأسود، ويبلغ المسلمون في مقدونيا حوالي نصف مجموع السكان، وفي بلغاريا حوالي ١٥٪، أما في رومانيا واليونان وكرواتيا وسلوفينيا والمجر فيشكّل المسلمون أقليات لا ثقل لها.

لم يكن يعرف تحديداً عدد المسلمين في يوغسلافيا[٣] قبل انهيار جدار برلين وما تبعه من تفتت الاتحاد اليوغسلافي إثر الحرب التي أحرقت المنطقة ما بين ١٩٩١ ـ ١٩٩٥، ويعود ذلك إلى أن الإحصاءات التي تم إجراؤها حينها لم تعتمد البعد الديني في تصنيف سكان الاتحاد، لكن هناك بعض

(١) كامل مروة، مرجع سابق، ص٢٤٢.
(٢) كريم المجاروي، الأقليات المسلمة في البلقان الواقع والتحديات دراسة لموقع الجزيرة بتاريخ ٣ يونيو، ٢٠١٢م.
http://studies.aljazeera.net/reports/2012/06/201263112026652924.htm
(٣) محمد م. الأرناؤوط، رابطة جديدة في غرب البلقان: من «يوغوسلافيا الجزيرة» إلى «يوغو ألبانيا» جريدة الحياة اللندنية، ١١ أكتوبر، ٢٠١٣م.

التقديرات التي تشير إلى أن عددهم قد يبلغ أربعة ملايين أو أكثر قليلاً في بلد يصل عدد سكانه إلى حوالي ٥،٢٢ مليون نسمة بحسب إحصاء ١٩٨١، ومع قولنا ذلك فإنّ عدد المسلمين الممارسين لعقيدتهم بين هؤلاء لا يمكن تحديده على وجه الدقة.

- أولى الجماعات المسلمة الثلاث الكبرى تُوجد في البوسنة والهرسك، ومسلموها سلافيو الأصل في أغلبهم، اعتنقوا الإسلام على امتداد القرون الماضية، إلى جانب وجود أعداد من أصول تركية وعربية وغيرها، ويبلغ عدد مسلمي البوسنة حوالي مليوني نسمة من مجموع أربعة ملايين ونصف.

- ثاني الجماعات المسلمة الكبرى توجد في كوسوفو ويبلغ عددها الإجمالي حوالي ٢ مليون نسمة.

- أما المجموعة الثالثة فتتواجد في مقدونيا وتتوزع بين مسلمين مقدونيين يُجهل عددهم على وجه الدقة، مع وجود تقديرات ترجح أن عددهم يبلغ حوالي ١٠٠ ألف نسمة، يُضاف إليهم نصف مليون نسمة من الألبان و١٠٠ ألف من المسلمين الأتراك، ويضاف إلى هذه المجموعات الكبرى أعداد أخرى من المسلمين يتوزعون في الجبل الأسود ويقدّر عددهم بعدة عشرات من الآلاف، وحوالي مائة ألف مسلم آخرين من أصول غجرية وأصول أخرى تنتمي إلى كل الأعراق المشار إليها أعلاه وتتوزع على مختلف المناطق والمدن والقرى اليوغسلافية.

وهنا يمكن طرح السؤال التالي؟ هل مكّنت الصراعات التي عرفتها فترة التسعينيات المسلمين في البلقان من تحقيق أهدافهم القومية وإنجاز مشاريعهم الوحدوية؟

والإجابة لا يمكن أن تكون قطعية، رغم أن البوسنة وكوسوفو حققتا استقلالهما عن بلغراد، لكن يبدو أن ألبانيا لم تتجاوز بعدُ أزمتها التي عصفت بها عام ١٩٩٧ وطالت وحدتها القومية. أما فيما يتعلق باستقلالية إقليم السنجق وغرب مقدونيا التي طالب بها متشددو المسلمين في هذين الجيبين فلم تعد اليوم على الأجندة المطلبية، فيما تظل المسألة القومية مطروحة وبقوة لدى

البوشناق وبالأخص لدى الألبان، وعموماً فإن الأمور شهدت تطوراً في اتجاهات عدة.

يرى د. محمد الأرناؤوط، أستاذ الجامعة الأردنية والخبير بالشؤون البلقانية، بأن القرن العشرين يعتبر بالنسبة إلى المسلمين في البلقان من أصعب الفترات التي مروا بها، وذلك بسبب التحديات التي واجهتهم والتصفيات التي تعرضوا لها، والتكليفات التي تفرض نفسها عليهم حتى الآن، فقد أدى ارتباط انتشار الإسلام في البلقان بمد وجزر الدولة العثمانية، وما خلفه من ارتباط فكري وسياسي ونفسي وثقافي، إلى مواجهة المسلمين لتحديات جديدة لم يكونوا مستعدين لها بما في ذلك المحاولات المتواصلة لاستئصالهم من المنطقة، وفي هذا الإطار يمكن القول: إن المسلمين بقوا بمعجزة حيثما هم الآن، رغم ما تعرضوا له من ترويع وتهجير وتطهير عرقي طوال القرن العشرين، وهم الآن بعد أن تجاوزوا التهديد الوجودي يواجهون التكيف مع الواقع الجديد أو الاستقرار التدريجي للبلقان، والاستعداد للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وهو ما يجعلهم في إطار واحد مع بقية المسلمين في أوروبا.

الأقليات المسلمة في البلقان بين الواقع والتحديات:

يشكل البلقان حدوداً جغرافية ودينية وثقافية بين الشرق والغرب، ويعرَف غربيّاً بأنه ميراث عثماني، وهو الفاصل بين المسيحية الكاثوليكية والأرثوذكسية، في ذات الوقت الذي يمثّل فيه البلقان فاصلاً بين أوروبا والإسلام[١].

في النظرة الأوروبية يشكل البلقان جسماً غريباً عن أوروبا المسيحية، وبالتالي فهو المنطقة الفاصلة التي لا بد من عزلها إلى أبعد ما يمكن، فالبلقان أصبح مرادفاً للمنطقة القذرة ولذلك الجسم الغريب عن أوروبا، وهكذا كانت النظرة إلى شعوبه المسلمة.

---

(١) د. محمد م. الأرناؤوط، كوسوفو ـ كوسوفا بؤرة النزاع الألباني، الصربي في القرن العشرين، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٤٤.

فالسياسية الباكستانية رئيسة الوزراء الراحلة[1] «بنزير بوتو» تقول: بأن الإسلام أو ثقافته لا يشكلان حاجزاً أمام الحداثة السياسية، على الرغم من استخدامه من بعض القادة الدكتاتوريين حجة لهم.

وتطرح هذه المقاربات المبنية على نظرة أوروبية مركزية، لإشكالية تفهّم الغرب للإسلام البلقاني وحقائقه.

وهنا لا بد من تعاطي الغرب مع مسلمي البلقان من خلال **النقاط التالية:**

١ ـ النظر برؤية متنوري أوروبا إلى اتباع الديانة الإسلامية، التي تتسم بالانفتاح على الأفكار الجديدة الذي لا يمكن وصف المسلمين بأنهم معادون للتقدم والحضارة من خلال بعض الجماعات المتطرفة التي تنتشر في كافة الديانات والأيديولوجيات.

٢ ـ تقيم تجربة العلاقة بين الشرق المسيحي المندمج مع الشرق الإسلامي والتعاطي مع الغرب المسيحي بالرغم من محاولة تعبئة فكرة صراع الحضارات التي تستند إلى الشرق المتدين والغرب المتدين...

٣ ـ رؤية واقع الأتراك والعلاقة مع مسلمو البلقان الطامحين نحو الذهاب إلى أوروبا والذي قد يساهم هذا الاندماج لاحقاً بتعزيز صورة الإسلام، فالأتراك قبل أن يكونوا أتراك كانوا إسلاميين.

ويرى الباحث في الشؤون التركية د. محمد نور الدين[2]: «بأن توحُّد الشعور التركي بالشعوب الإسلامية، لقد توحَّدت العلاقة في العلاقة مع الأتراك بالهوية الأوروبية والهوية المسيحية التي حملت شعورها وهويتها منذ القديم».

(١) بنزير بوتو، المصالحة والإسلام والديمقراطية والغرب، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠٠٨م، ص١٠١.

(٢) حاتم الطحاوي، التدين الشعبي في الدولة العثمانية، جريدة الحياة اللندنية، ٢٨ ديسمبر، ٢٠١٣م.

لذا يمثّل مسلمو البلقان خليطاً مجتمعيّاً متنوعاً سياسيّاً وإثنيّاً ولغويّاً وثقافيّاً، بل وحتى دينيّاً «بمعنى الاختلاف المذهبي». وهم في الغالب سكان المنطقة الأصليون اعتنقوا الإسلام على امتداد قرون طويلة ولكن طوال الفترة السابقة كانت العلمانية تسيطر على معظم سكان البلقان بما فيها الأقليات الإسلامية المختلفة[1].

مسلمو البلقان وتوزيعهم الإثني:

يتوزع مسلمو البلقان إلى إثنيين كبيرتين، هما: الإليرية «الألبان»، والسّلافينيون الذين يضمون البوشناق، والتربشيين، والغورانيين، ومسلمي بلغاريا البوماك. ويتحدث مسلمو البلقان عشر لغات مختلفة أوسعها استعمالاً الألبانية والبوسنية والتركية ولغة الغجر والبلغارية.

يتبع مسلمو البلقان المذهب الحنفي، كما يوجد حوالي ٢٠٪ من البقداشيين في ألبانيا وبعضهم في مقدونيا، إلى جانب وجود أقلية علوية في بلغاريا، وينتمي معظم مسلمي البلقان إلى الحضارة والثقافة العثمانية، أما الفترة الأكثر سواد في تاريخ مسلمي البلقان تعود إلى تسعينيات القرن الماضي حيث ارتكبت مجازر كبيرة بحقهم وخاصة في البوسنة نستطيع وصفها بالتاريخية؛ ففي بداية القرن العشرين لاحقت السلطات البلغارية المسلمين من الإثنية التركية وأجبرتهم على ما سمي حينها ببلغرتهم وكان ذلك في سنوات حكم تودور جيفكوف الأخيرة، وتلا ذلك عمليات التطهير العرقي الأشرس الذي عرفته أوروبا في البوسنة والملاحقات في السنجق «مقدونيا» والحرب المفتوحة على مسلمي كوسوفو ومقدونيا، وأسفرت هذه الحملة الحاقدة على المسلمين في البلقان إلى قتل حوالي ٢٥٠ ألفاً منهم وتهجير مئات الآلاف إلى أميركا وأستراليا وأوروبا الغربية فتغيرت مرّة أخرى خارطتهم الإثنية في البلقان.

(١) د. محمد م. الأرناؤوط، دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان، مؤسسة التميمي ومركز جمعة الماجد، تونس، دبي، ١٩٩٥م، ص١١٢.

العلاقة البلقانية وتركيبتها الجيو ـ سياسية:

تشكّل دول البلقان موقعاً استراتيجيّاً وجغرافيّاً مهمّاً للدول المتحاربة والمتصارعة على توسيع نفوذها الاقتصادي والسياسي، يكتب الصحافي الراحل كامل مروه في كتابه[1] بأنه لمن الغريب حقّاً أن تقوم عاصمة أية دولة كانت في أقصى حدودها بدلاً من أن تكون في نقطة متوسطة. والواقع أن العواصم البلقانية شاذة في مواقعها؛ لأن حدود الدول البلقانية مصطنعة تبدأ حسب أهواء الدول الكبرى والحزازيات المحلية، دون النظر إلى الاعتبارات الاقتصادية والضرورات العسكرية.

فإذا أردنا تحليل علاقات بلدان البلقان الحالية فيما بينها وفي عملية التكامل والاتحاد مع أوروبا هو بالتأكيد بان لحظة أساسية في عملية التخطيط لانضمامها إلى الاتحاد الأوروبي، لكن تعقيد الموضوع وأهميته الاستثنائية، يتطلب مع ذلك ترتيباً تحليليّاً خاصّاً[2]. وهذا ما يحملنا إلى عرض حالة كل دولة من دول البلقان بشكل منفصل وبيان أبعاد علاقاتها مع الاتحاد الأوروبي:

ألبانيا: فمنذ تأسيسها كدولة حديثة بَنَتْ ألبانيا تقليديّاً وعلاقات جيدة مع إيطاليا، باستثناء فترة عزلها التام عن العالم الخارجي في عهد حكم «أنور خوجة»، لقد عرفت ألبانيا علاقات ناشطة ومكثفة مع إيطاليا، فقد هاجر عدد مهم من الألبان منذ القرن السادس عشر إلى جنوب إيطاليا حيث استقروا في مدن مثل «كلابريا وسيسيليا»، وباتوا جزءاً من خارطة تلك المنطقة الديموغرافية. كما لألبانيا علاقات توصف بالطيبة مع الجار اليوناني، ويوجد عدد من الألبان يقيمون منذ زمن في منطقة أبيرا. وحافظ كل من ألبان إيطاليا وألبان اليونان على لغتهم ويتحدثون بها فيما بينهم. ولم تعرف ألبانيا خلال

(١) محمد نور الدين مرجع سابق، ص٢٣ ـ ٢٤.
(٢) براين تيرنر، علم الاجتماع والإسلام، دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر، ترجمة: أبو بكر أحمد، بافدور، دار القلم، بيروت، ١٩٨٧م، ص٢١١.

تاريخها الحديث أي صراع أو مواجهة مع أي من دول الاتحاد الأوروبي يمكن الإشارة إليها، وعلى مستوى البلقان حافظ الألبان على علاقاتهم المتميزة التي ربطتهم بالمونتنغريين لا سيما العلاقات العائلية منها.

البوسنة والهرسك: أصبحت البوسنة منذ العام ١٩٤٣ دولة قائمة بذاتها داخل الفيدرالية اليوغسلافية، وفي هذا السياق يمكن القول: إن تجربة البوسنة كدولة وعلاقاتها بالاتحاد الأوروبي تعود فقط إلى العقدين الأخيرين، ويمكن الحكم على هذه التجربة بأنها إيجابية في عمومها. تظل ألمانيا هي أقرب بلدان الاتحاد الأوروبي إلى البوسنيين الذين كانوا قد بنوا علاقاتهم مع الألمانيين والنمساويين، وأعداد كبيرة منهم اليوم تقيم في هذين البلدين تاريخيّاً، وطوال تاريخها الحديث الذي يبدأ نهاية القرن التاسع عشر.

صربيا: كان لصربيا الدولة علاقات مميزة وتقاليد راسخة في التعاطي مع روسيا، أما عن أصدقاء صربيا في الاتحاد الأوروبي فتأتي فرنسا في المقام الأول ثم بريطانيا، وتعود تاريخية هذه العلاقة إلى الحرب العالمية الأولى.

شعب صربيا لديه شعور سلبي ضد ألمانيا، وفي العقد الأخير أصبح الصرب يكرهون الأميركيين بعد تعرض بلدهم لقصف قوات الناتو، أما الحيز الأكبر من الكراهية فيكنّه الصرب للفاتيكان والبابا والكاثوليك، كما أنهم أعداء للإيطاليين، وتقربهم ديانتهم المسيحية الأرثوذكسية من اليونانيين.

إلا أن علاقات صربيا بالجارة بلغاريا، التي تدين بدورها بالأرثوذكسية وهي عضو في الاتحاد الأوروبي، فتتميز بالكراهية الشديدة المتبادلة، والتي تعود أسبابها العميقة إلى ما خلّفته حرب البلقان الأولى عامي ١٩١١ ـ ١٩١٢، من جروح ومشاعر سلبية بينهما، وقد أحيتها الخلافات الأخيرة التي جدَّت بينهما بشأن انتقادات الحكومة البلغارية لبلغراد حول تعاملها المتشدد تجاه حقوق البلغار الذين يقيمون في صربيا.

كوسوفو: تعتبر منطقة شديدة التجانس[١] من حيث تكوينها الإثني والديني، مع أنها شهدت صراعات عرقية عنيفة بين عامي ١٩٩٩ - ٢٠٠٠. وفقاً لإحصاء عام ٢٠٠٣ بلغ عدد السكان حوالي ٢ مليون نسمة، منهم ٩٢٪ من الإثنية الألبانية و٤٪ من الصرب، ٢٪ بوشناق و١٪ أتراك و١٪ من الغجر. يمثل المسلمون أغلبية تبلغ ٩٥٪ وهي أعلى نسبة دينية تجتمع في دولة واحدة في كامل منطقة البلقان.

الجبل الأسود: تتمتع جمهورية الجبل الأسود بعلاقات مميزة مع إيطاليا طوال تاريخها الحديث، وتربط شعبي البلدين علاقات مصاهرة بين ملكي البلدين: فيتوريو إيمانويلي ونيكولا، وتواصلت حميمية تلك العلاقات خلال الحرب العالمية الثانية، ولكن تقليدياً ترى جمهورية الجبل الأسود وشعبها في روسيا الحليف والصديق الأقرب حيث يعيش فيها نسبة صغيرة من الإثنية الألبانية ذات الديانة الإسلامية[٢].

مقدونيا: لم يكن لمقدونيا علاقات سيئة أو جيدة مع الدول الأخرى، عندما كانت منذ العام ١٩٤٤ دولة ضمن الاتحاد اليوغسلافي ولكن تُشكِّل اليوم البلدان المجاورة لمقدونيا عائقاً أمام انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي[٣]، ألا وهي صربيا وبلغاريا واليونان، والتي تربطها بمقدونيا علاقات طويلة وديانة واحدة أي الأرثوذكسية؛ فصربيا، وإن لم تكن عضواً في الاتحاد الأوروبي، فإن عدم اعترافها بالكنيسة الأرثوذكسية المقدونية يثير حنق الحكومة والشعب

(١) محمد م. الأرناؤوط، البلقان ضائع بين حروب الاحتلال وحروب التحرير ومؤرخون ينكرون الآخر فيجعلون التاريخ مِزاجاً، جريدة الحياة اللندنية، ١٦ نوفمبر، ٢٠١٢م.

(٢) المقصود هنا الاتحاد اليوغسلافي الأول الذي تشكل في الأول من ديسمبر ١٩١٨م تحت اسم مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين ثم سمي لاحقاً بـ«مملكة يوغسلافيا» التي انهارت أمام الاحتلال النازي عام ١٩٤١م.

(٣) محمد م. الأرناؤوط «هاد الألبان» من البوسنة إلى سورية جريدة الحياة اللندنية، ١٥ آب، ٢٠١٣م.

المقدوني. كما أن محاكمة الأب الصربي[١]، الذي أسس الكنيسة الأرثوذكسية على الأراضي المقدونية قد يعرقل انضمام مقدونيا إلى الاتحاد الأوروبي بسبب عدم احترامها للحريات الدينية.

أما مواقف بلغاريا واليونان، وهما العضوان في الاتحاد الأوروبي، فتزيد من تعقيد مسار انضمام مقدونيا إلى الاتحاد الأوروبي؛ فبلغاريا لا تعترف أبداً بوجود إثنية مقدونية وتعتبر المقدونيين بلغاراً، كما لا يعترف البلغاريون باللغة المقدونية ويرون أنها لهجة بلغارية محرَّفة؛ أي: أنه لا تاريخ لمقدونيا غير التاريخ البلغاري. والجدير بالذكر أن للصرب أيضاً نفس هذا الموقف من المقدونيين ويعتبرونهم مجموعة غير مستقرة من أصول صربية. أما اليونان فهي تطالب مقدونيا بتغيير اسمها الرسمي المنصوص عليه في الدستور كشرط أساسي لانضمامها إلى الناتو والاتحاد الأوروبي.

ومن المفارقات، أنه على الرغم من كل هذه الخلافات فإن المقدونيين يعتبرون الصرب والبلغار واليونانيين أصدقاءهم، في حين ينظرون إلى الألبانيين، الذين لم يدخلوا معهم في أي صراع كان على مر التاريخ، على أنهم أشد أعدائهم.

سلوفينا: سلوفينا الآن منهمكة ببناء الديمقراطية «المستقرة» والتي كانت الأساس في منحها عضوية الاتحاد الأوروبي. تحاول التوجه للغرب منذ انهيار الاتحاد اليوغسلافي وإعلان استقلالها عنه في نهاية عام ١٩٩١. اصبحت في عام ٢٠٠٤ عضو في حلف الناتو والاتحاد الأوروبي[٢].

كرواتيا: أكثر من ٦٦٪ من الكروات صوَّتوا في استفتاء أجري في يناير/ كانون الثاني ٢٠١٢ لمصلحة انضمام بلادهم إلى الاتحاد الأوروبي، مما سمح بعرض معاهدة الانضمام التي وقعتها البلاد على جميع الدول الـ٢٧ الأعضاء

(١) محمد نور الدين، تركيا الجمهورية الحائرة «مقاربات في الدين والسياسة والعلاقات الخارجية»، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، ١٩٩٨م، ص٢٥٦.

(٢) محمد نور الدين، مرجع سابق، ص٢٥٦.

للموافقة عليها كي تنضم كرواتيا للاتحاد. لقد أنظمة انضمت كرواتيا إلى حلف شمال الأطلسي في ٢٠٠٩ وأنهت في حزيران/يونيو ٢٠١١ مفاوضاتهما للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي[١] في الأول من تموز/يوليو ٢٠١٣.

وفي المجمل يمكننا القول: إن العلاقات القائمة بين دول البلقان ودول الاتحاد الأوروبي في الاتجاهين، يقوم أساساً على المعطى الديني، وبشكل أقل على الانتماء الإثني لأغلبية سكان المنطقة، أو بالأحرى شعوب تلك البلدان.

الجغرافيا السياسية الجديدة والعولمة:

تضع الجغرافيا الحديثة أو العولمة الأقليات المسلمة في البلقان أمام تحدي جديد في عملية الاندماج مع المحيط. يرى د. ورويك موراي[٢]: «بأن تسعينات القرن الماضي شهدت تشتت سياسات الليبرالية الجديدة والحكومات الديمقراطية عبر العالم الثالث السابق، نحو دول القمر الشيوعي السابق، ونحو أولئك الذين اندرجوا في الاتحاد السوفياتي نفسه، بدا أن الغرب انتصر، ليس من قبل المصادفة أن يكون هذا وقت المبالغة الكبرى بشأن الاحتمال التحريري لعمليات العولمة. نجحت الرأسمالية، والديمقراطية الليبرالية، في رأي المتحمسين للعولمة في إزاحة تهديد النزاع العالمي. على هذا استعملت العولمة على نطاق واسع خطاباً لتوفير أساس منطقي لتمديد الديمقراطية الليبرالية الجديدة في أوروبا».

بهذه الفترة برأي د. ورويك موراي[٣] لقد ظهرى مصطلح مجتمع ما بعد المادية والدولة القومية في العام ١٩٩٠ لوصف ظهور ثقافة جديدة بقيم سياسية مميزة عن السياسة التقليدية التي تجحد فيها الخطوط الفاصلة بالقيم المادية،

(١) د. ورويك موراي، جغرافيا العولمة قراءة في تحديان العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية، ترجمة: سعيد منتاف سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٩٧، شباط/فبراير، ٢٠١٣م، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٢) د.ورويك موراي، مرجع سابق، ص٢١٨.

(٣) د. ورويك موراي، مرجع سابق، ص٢٢٣.

بمعنى آخر تحدد فيها قضايا تشمل توزيع الثروة حقوق الإنسان الانتخابات التعبير حرية جمعيات المجتمع المدني، وبهذه القضايا تغيرت الجغرافيا السياسية التقليدية التي تركزت سابقاً على الدولة القومية، فالسياسة الجديدة التي انتصرت لمصلحة العولمة. فالسياسة التي ظهرت في أوروبا على شكل الاتحاد الأوروبي الذي قامت على أساس التركيز على الاندماج الاقليمي فالاندماج الاقتصادي، فالتركيز على الاقتصادي في عملية الاندماج تجاوزه الاتحاد الأوروبي ليصل الى الاندماج السياسي مركزاً على الاقتصادي في ظاهرة سياسية اقتصادية ثقافية، لقد نشأت محاولات الاندماج الأوروبية الغربية كما يؤكد د. ورويك موراي من رماد الحرب العالمية الثانية ورغبة القوميات الأوروبية الغربية من منع وقوع مثل هذه الحرب مرة أخرى.

مسلمو البلقان: التحديات والإشكاليات:

يعاني مسلمو البلقان مشكل مختلفة في التركيبة الجديدة لمجتمعاتهم ونتوافق بهذا الخصوص مع وجهة نظر د. يسري غرباوي[١] الخبير في مركز الدراسات والسياسة الاستراتيجية بمركز الأهرام حول الإشكاليات التي تقع على عاتق مسلمي البلقان وتشكّل لهم تحدّياً فِعْلياً يمكن تحديدها **بالتالي:**

١ ـ أزمة «الهوية»، حيث إن تواجد المسلمين في قلب الصراعات التي ضربت دول جنوب شرق أوروبا في العقد الأخير، قد غذى عدداً من الشكوك حول حقيقة وجود صراع بين الحضارات أو الثقافات، وقد وجدت أطروحات صامويل هنتنغتون وروبرت كوبلان في هذا الصدد أرضاً خصبة في منطقة البلقان؛ حيث يلتقي مثل هذا الخطاب المشحون والشاحن مع الصورة النمطية المرسومة سلفاً للخلافة العثمانية أو حول دور دول البلقان في حماية المسيحية من هجمات الإسلام.

وفي هذا الإطار، فإن الهوية الوطنية في البلقان أعيد النظر فيها على ضوء أزمة كوسوفو وقضية الألبان في مقدونيا، حيث يمثل الإسلام هوية

(١) د. يسري الغرباوي، جريدة أخبار الخليج الإماراتية، ٢٢ أغسطس، ٢٠١٣م.

مشتركة مهمة جداً لهاتين المجموعتين، والتي يحاول بعض الزعماء الدينيين وجزء من المثقفين خلطها بالهوية الوطنية، وقد أدت هذه الظاهرة إلى نتائج مهمة ألقت بظلالها على الوضع الألباني نفسه، حيث قدمت أعداد من مسلمي مقدونيا وكوسوفو إلى ألبانيا لإنشاء مشاريع اقتصادية ضخمة واحتلوا مواقع قيادية في المؤسسة الدينية فكان تأثيرهم واضحاً في شمال البلاد التي بات أغلب سكانها ذوي حساسية إسلامية عالية في مواجهة الجنوب، الذي يحسب تاريخيّاً على الشيوعيين، وهم اليوم يحاولون بسط نفوذهم المتصاعد على الجنوب ويطمحون إلى خلق فضاء يضم ألبانيا وكوسوفو وغرب مقدونيا، ما يعني أن ثقل الهوية القومية الألبانية آخذ في التحول إلى الشمال، حيث من المحتمل أن تقوى شوكة المسلمين أكثر، وهو ما يخيف صربيا وروسيا بشكل خاص لتشابه حالة الشيشان المسلمة مع ما تعيشه مجتمعات البلقان المسلمة.

٢ ـ الميراث التاريخي للعلاقات البلقانية الغربية. وتؤرخ د. تهاني عبد الرحمٰن[١] في كتابها لهذه العلاقة من حيث إن نمط ممارسات ما يسمى الحضارة المسيحية بشقها الشرقي (الأرثوذكسي، الروسي الصربي)، وبشقها الغربي اللاتيني (الكاثوليكي والبروتستانتي)، ويذكر الخبر تجاه الوجود المسلم في البلقان كان صعباً للغاية. ومن ثم إذا كان الغربيون يطالبون الآن بتجاوز التاريخ وتخطيه حتى يمكن التغلب على معوقات بناء السلام واقتلاع جذور الصراعات الراهنة، إلا أن للعملة وجهاً آخر، فلا يمكن تجاوز ممارسات التاريخ المتحيزة ضد الإسلام والمسلمين؛ بل يجب توظيف هذه الممارسات في الهجوم المضاد على أصحاب توجه الصراع الحضاري من الغربيين المعاصرين، الذين لا يلقون بأسهمهم إلا على الحضارة العربية الإسلامية باعتبارها حضارة العنف وعدم التسامح[٢].

(١) د. تهاني شوقي عبد الرحمٰن، الأصول التاريخية للمسلمين في البلقان، دار العالم العربي، ٢٠١٠م، ص٣٥ ـ ٣٧.

(٢) م.س.ن. ص٣٥ ـ ٣٧.

٣ ـ حالة الإسلام بين الألبان وعلاقته بالقومية الألبانية والتحديات المحيطة بها، من الذي حمى الإسلام حتى الآن، وكيف تأثر وأثر بالقومية الألبانية وبالبيئة البلقانية بصفة عامة؟ وهذه القضية تكتسب طابعاً خاصّاً؛ لأن الألبان من أكثر الشعوب حماسة لقوميتهم ودفاعاً عنها، ولقد تعرضوا للتقسيم نتيجة تسويات الحروب وتوازنات القوى الإقليمية والدولية في مرحلة تصفية الإمبراطورية العثمانية وفي فترة ما بين الحربين العالميتين وما بعد الحرب العالمية الثانية. وإذا كان الإسلام قد ساهم في البناء الحضاري في البلقان، فلقد تحول إلى عامل مقاومة وصمود ضد المخططات الغربية في مراحل التراجع العثماني. وفي هذا الإطار هناك محاولات لتصحيح بعض الصور السلبية النمطية عن العلاقات التاريخية بين العثمانيين والألبان.

٤ ـ إن مسلمي البلقان، ما عدا أولئك الذين يعيشون في ألبانيا، سيظلون أقليات دينية وإثنية تعيش داخل بلدان تعادي الإسلام وترغب في إنهاء وجوده أو على الأقل إبعاده عن الحياة العامة للمجتمعات البلقانية. ومن ثم، لا بد من وضع استراتيجيات بعيدة وقصيرة الأمد للاندماج التدريجي في بقية أوروبا بطمأنينة من دون كوابيس الماضي من مجازر وتصفيات وهجرات قسرية، ولكن مع تحديات جديدة للتكيف مع المعايير الأوروبية حول الإسلام والتعايش مع الآخرين، وباندماج البلقان، وما يعنيه من انضمام كل هؤلاء المسلمين، ستكون أوروبا أكثر تنوُّعاً مما هي عليه الآن، ما سوف يؤدي في النهاية إلى مستقبل أفضل لمسلمي البلقان.

ماذا تريد دول البلقان من أوروبا:

يكتب فريد موهيتش في تقريره[١]: «بأنه يمكن الحديث عن دافعين مركزيين يحكمان طموحات كل الدول البلقانية التي ظلت خارج الاتحاد الأوروبي، **أحدهما**: قومي، **والثاني**: اقتصادي، ونظراً لترابطهما فلا يمكن

(١) فريد موهيتش، ص٤٠.

ترتيبهما حسب الأولوية، كما تختلف أولوية كل دافع من دولة لأخرى، بل من فترة لأخرى. لذلك وجب اعتبار هذين الدافعين على نفس قدر الأهمية بحيث يسمحان بتحقيق الأهداف القومية لتلك الدول ويخرجانها من أزمتها الاقتصادية الخانقة التي تردّت في لا شك أن دول البلقان تركز اليوم على إعطاء دفعة قوية لهويتها القومية وتحقيق البرامج المتعلقة بها والمتفرعة عنها».

يرى السيد صدر الدين القبانجي في كتابه علم السياسة[(١)]: «أن القومية لا يمكن أن تتخذ طابعاً سياسيّاً بحيث يستفيد منها في العمل السياسي ما لم تتحول إلى أيديولوجية مؤثرة في قناعات الناس»، ومعنى ذلك: أنه حينما يراد إحداث كتلة قومية رصينة واحدة، وحينما يراد جعل ساحة العمل السياسي التحريري هي ساحة القومية كاملة، فإن هذا يتطلّب ترسيخ الشعور القومي، وتصعيد الولاء للقومية وتعميق الإيمان بها، وضرورتها، وأصالتها، وواقعيتها، وهذا الأمر سيربط دائماً بين القومية كسياسية وبين القومية كعقيدة وفلسفة.

وهكذا في الوقت الذي استعاضت فيه الولايات المتحدة الأميركية في كل ولاياتها الفيدرالية[(٢)]، ونيوزيلندا وأستراليا، عن الهوية القومية بتفعيل مفهوم المواطنة، فإن دول البلقان ما تزال تصرّ على هويتها القومية أكثر من أي وقت مضى ويغيب عن وعي شعوبها الجمعي مفهوم المواطنة أو يكاد. وتبدو هذه اللحظة التي تمر بها دول البلقان غير مواتية بالمرة ولا تتقاطع إطلاقاً مع عملية الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، بمعنى أن الأهداف الرئيسية لدول البلقان وطموحها المركزي في دخول النادي الأوروبي مبني على طموحات وتوقعات شعوب تلك الدول لا سيما توقها إلى تأكيد هويتها القومية ولغتها القومية وثقافتها القومية وبرنامجها القومي، وهو ما يخالف جملة

---

(١) السيد صدر الدين القبانجي، علم السياسة تجديد من وجهة نظر إسلامية، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، ١٩٩٧م، ص١٦٠.

(٢) السيد صدر الدين القبانجي، مرجع سابق، ص١٠٤.

وتفصيلاً أسس قيام الاتحاد الأوروبي وقيمه التي بُنِي عليها. من الجانب الأوروبي، وتحديداً في الدوائر الأوروبية المطلعة على أوضاع دول البلقان والواعية بهذه المعطيات يسود شعور عام يلفه الشك تجاه بلدان البلقان وشعوبها، وهو ما يؤكد أن المعطى القومي لا يزال هو المتحكم في الوعي الجمعي. من ناحية أولى، على الاتحاد الأوروبي والدول البلقانية الراغبة في الانضمام إليه، العمل على التخفيف من هذا الشعور القومي ومحاولة تخطيه بحذر لبلوغ بلدان البلقان الانتظام في الاتحاد الأوروبي، خاصة وأن بلدان هذا الأخير تؤكد أنها لن تضم دولاً يغلب على شعوبها طابع قومي متشدّد. من ناحية ثانية، إن الوضع الاقتصادي المتردي الذي توجد فيه دول البلقان منذ الحقبة الشيوعية عندما كانت في ظل «الاتحاد اليوغسلافي»، باستثناء ألبانيا التي لم تكن تنتمي إليه، لكنها تشترك مع دول البلقان في سوء الحالة الاقتصادية، هذا الوضع جعل سقف توقعات شعوب البلقان عالياً، وزاد من رغبتهم في الالتحاق بالاتحاد الأوروبي لتجاوز أزمتهم الاقتصادية، ورأوا في عضويتهم ملاذاً آمناً يحقق لهم ازدهاراً اقتصاديّاً سريعاً. وبهذا فقد باتت دوافع شعوب ودول البلقان الاقتصادية أكثر أهمية وأولوية من دوافعهم السياسية التي تحرّك رغبتهم في الانتماء إلى المنظمة الأوروبية. وبقطع النظر عن كل الاختلافات القائمة بين دول البلقان، فإن رغبتها في تأكيد هويتها القومية والثقافية وتحسين أوضاعها الاقتصادية وحّدت رغبتها في الالتحاق بالاتحاد الأوروبي كهدف مركزي تسعى إلى إنجازه.

العلاقة البلقانية وتأثرها بأوروبا:

في الواقع، إن علاقة دول البلقان بالدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي، في كل أوجهها تتأثر سلباً وإيجاباً بعلاقة الدول البلقانية أساساً ببعض الدول الأوروبية الأكثر تأثيراً وصنعاً للقرارات داخل الاتحاد الأوروبي، ومن شأن طبيعة العلاقات الجيدة بين الجانبين أن تيسّر عملية التفاوض المؤدية إلى تحقيق هدف دول البلقان بالالتحاق بعضوية الاتحاد الأوروبي. إلا أن العلاقات الحالية بين مجموعتي الدول يطبعها من الجانب البلقاني تركيز كبير

على تنفيذ البرامج ذات التوجه القومي لهذه الدول، بما لا يترك مجالاً للتفاؤل بالتوصل إلى الحل المنشود؛ أي: تحقيق انضمام دول البلقان إلى الاتحاد الأوروبي.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه في حالة قبول عضوية الدول البلقانية فرادى على فترات زمنية متتابعة، فإن هناك إمكانية لعرقلة انضمام الدول البلقانية التي سيحاول بعضها تأخير أو تعطيل انضمام جاراتها. ومثال ذلك: ما حدث عندما عطلت سلوفينيا، وهي أولى الدول لحاقاً بالاتحاد الأوروبي، قبول طلب عضوية كرواتيا بإثارتها للخلاف الحدودي حول منطقة إيستري «وهو الخلاف الذي تم حلّه في وقت وجيز نظراً لتوفُّر الرغبة لدى الاتحاد الأوروبي في ذلك». كما استعملت اليونان حق الفيتو للاعتراض على عضوية مقدونيا في حلف الناتو، وقد أثارت اليونان لتبرير اعتراضها خلافاً يعود إلى أكثر من ٢٠ عاماً مع مقدونيا يتعلق بطلب يوناني أحادي الجانب بتغيير الاسم الرسمي لدولة مقدونيا، ولم يتدخل الاتحاد الأوروبي للتوسط بين البلدين لعدم توفُّر الرغبة لديه في قبول عضوية مقدونيا.

ومع انهيار صربيا ومحاولة طلب انضمامها للاتحاد الأوروبي فقدت روسيا حليفاً استراتيجياً في جزيرة البلقان والتي كانت آخرها تقسيم صربيا وإعلان كوسوفو دولة مستقلة لا تزال تنتزع عضويتها في الأمم المتحدة والاعتراف الدولي بها تدريجياً، بالرغم من عدم رضى موسكو(١)، عن هذا الاستقلال والتي أضحت في مأزق بسبب هذه الخطوة(٢). ومن بين المشاكل التي سوف يعاني منها البلقانيون والتي تتخوف منها الأقلية المسلمة من عملية الاندماجي. تأثير الانفتاح الثقافي على الديانة الإسلامية التي ستصبح ضعيفة وسط الاندماج الثقافي والاقتصادي الذي يسيطر عليه الثقافة الغربية والديانة المسيحية.

---

(١) أريك هوبزباوم عصر التطرفات القرن العشرين الوجيز (١٩١٤ - ١٩٩١)، ترجمة: فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١١م، ص٨٠١.

(٢) خليل العناني، استقلال كوسوفو، جريدة الوطن العومانية، ٢٠ فبراير، ٢٠٠٨م.

الفيتو البلقاني ضد الجيران:

ومن المتوقع أن تسعى كل دولة بلقانية قد تتمكن من اكتساب صفة عضوية الاتحاد الأوروبي قبل جاراتها البلقانية، إلى عرقلة انضمام سواها ممن تختلف معهم أو قد تلجأ لاستعمال حق الاعتراض؛ أي: الفيتو الذي يتيحه لها نظام الاتحاد الأوروبي لمنع عضوية الدول التي لها معها خلافات.

وبشكل عملي وبصورة أوضح، فإن ترشيح صربيا للعضوية الأوروبية سيلاقي بكل تأكيد اعتراضاً كرواتياً في حال كان لها صفة العضوية قبل صربيا، وفي الحالة العكسية فإن صربيا كدولة عضو في الاتحاد الأوروبي ستستعمل حق الفيتو لمنع كرواتيا من الانضمام إليه.

البوسنة بدورها قد تعترض على قبول كرواتيا في عضوية الاتحاد، وذلك سيكون بإصرار من «ريبوبليكا صربسكا «من الجمهورية الصربية»» بعد مشاورات مع بلغراد، في حين قد توافق البوسنة على عضوية صربيا دون إثارة أية إشكالات.

عضوية كوسوفو في الاتحاد الأوروبي ستكون بدورها مستحيلة في حال كانت صربيا عضواً في الاتحاد عند مناقشة الطلب الكوسوفي، أما في الحالة المقابلة فإن كوسوفو لن تعترض، في الغالب، على قبول عضوية صربيا(١).

وفي الحالة الألبانية فإن صربيا ستكون أول المعترضين، وقد تذهب إلى حد استعمال الفيتو ضد انضمام ألبانيا إلى الاتحاد إلا إذا وافقت تيرانا على شروط صربية محددة، في حين ستواجه عضوية مقدونيا اعتراضاً يونانياً وفيتو من بلغاريا التي يرى رئيسها أن مقدونيا، دولة مصطنعة وليست أصلية.

قد لا تعترض مقدونيا على انضمام أي من الدول البلقانية الأخرى، رغم ما يقال عن خلافها مع كوسوفو، التي اعترفت بها الحكومة البلغارية كدولة

---

(١) محمد م. الأرناؤوط سورية على خطى البوسنة: دولة «لا في الأرض ولا في السماء»، جريدة الحياة اللندنية، ٢٣ مارس، ٢٠١٣م.

مستقلة، وذلك رغم التوجه العام للشعب المقدوني الرافض للاعتراف باستقلال كوسوفو من ناحية أخرى، قد تعترض صربيا على عضوية مقدونيا خاصة بعد وصول توميسلاف نيكوليتش إلى سدة الرئاسة، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار تصريحات نيكولتش «الرافضة للتسمية الرسمية لمقدونيا التي أقرت في دستورها تسمية جمهورية مقدونيا كردّ منه على اعتراف مقدونيا باستقلال كوسوفو».

وقد تمر عضوية الجبل الأسود دون مشاكل تُذكَر، باستثناء ما قد تثيره صربيا من محاولات عرقلة.

وإذا أخذنا كل الذي سبق في الاعتبار، فيمكننا القول: إن واقع العلاقات بين مختلف دول البلقان اليوم لا يترك سوى مجال واحد ممكن لعضوية الدول البلقانية في الاتحاد الأوروبي، وهو أن يتم قبولها كلّها دفعة واحدة ضمن الاتحاد الأوروبي. أما ألبانيا فقد يكون انضمامها إلى الاتحاد أيسر شريطة ألا تكون أي من الدول الأخرى عضواً في الاتحاد حين دراسة طلبها.

الاتحاد الأوروبي وتأثيره في الحالة البلقانية:

تجدر الإشارة إلى أن العلاقة بين الدول البلقانية والاتحاد الأوروبي ثنائية الأطراف، ففي الوقت الذي تسعى فيه دول البلقان إلى الحصول على عضوية الاتحاد الأوروبي، فإن مؤسسات هذا الأخير هي التي تملك حق قبول تلك العضوية ووحدها التي تحدد شروط العضوية، ولا تقبل قراراتها النقض أو الاعتراض من قبل دول البلقان. وبعد إبداء هذه الملاحظة المهمة، فإن ما يميز هذه العلاقة هو عدم توازنها، **وهنا نطرح التساؤل التالي:**

هل لأوروبا وحدها تقدير المواصفات التي تراها ضرورية في الدولة المرشحة للانضمام إليها؟

ويعتمد موقفها من انضمام أي دولة إلى الاتحاد على رضاها عن التوجهات السياسية العامة لتلك الدولة، وبذلك تصنف الدول إلى دول قابلة للانضمام وأخرى غير قابلة له. علينا القول بأن أوروبا ومنذ نشأة اتحادها أظهرت بما لا يدع مجالاً للشك تحفظها على الإسلام والمسلمين، وقد كرّر مسؤولوها مراراً

وتكراراً مغالطة أن أوروبا قارة مسيحية خالصة وأن الإسلام، بصفته ديانة شرقية، غريب عن أوروبا، وأدت هذه المغالطة الكبرى إلى سلبية في العلاقة أثّرت في الجانبين. وقد بات من الضروري العمل على كافة المستويات الأوروبية، من المقررات المدرسية إلى وسائل الإعلام المؤثرة، على إصلاح وإعادة قراءة منهجية لهذه المغالطة القائلة بمسيحية أوروبا الخالصة، وذلك ليس فقط من أجل الحقيقة فحسب، بل وأيضاً من أجل إعادة بناء علاقة سليمة وعادلة بين أوروبا والإسلام والمسلمين، وكذلك من أجل إدراك حقيقة أوروبا لذاتها ومصالحتها مع تاريخها. فأسطورة مسيحية أوروبا الخالصة لا بد من إبدالها بحقيقة أن المسيحية في أصلها لم تنشأ في أوروبا بل في الشرق الأوسط حيث ظهرت أيضاً الديانتان: اليهودية والإسلامية، وأن ليس لأوروبا ديانة أصلية خاصة بها، ولا يمكن بحال قبول مقولة مسيحية أوروبا الخالصة. كذلك لا بد هنا من التذكير بأن الإسلام، وفي أشكاله التنظيمية السياسية والاقتصادية والثقافية، كان حاضراً وبقوة في أرجاء القارة الأوروبية، وسبق وجوده في أوروبا معرفة بلدان أوروبية كثيرة للمسيحية، وقد كانت الأندلس تحتضن أول دولة مسلمة عام ٧١٢ للميلاد، ومثلت عاصمة الثقافة والعلوم والفن الأوروبية، وهو ما يعني وجود دولة الأندلس المسلمة ٣٠٠ سنة قبل دخول المسيحية إلى الدول الإسكندنافية أو الدول الواقعة في شمال وشرق أوروبا وروسيا.

علاقات دول البلقان الداخلية:

تشهد العلاقات بين دول الاتحاد الأوروبي ودول البلقان في الوقت الحاضر توجُّهاً عامّاً تسيطر عليه روح المغالطة الأيديولوجية التي عمل الغرب على نشرها وروج لها في العالم حتى باتت كحقيقة مسلم بها، وهي أن أوروبا قارة مسيحية خالصة. وبأخذ هذا المعطى في الاعتبار، فإن معطى آخر لا بد من إقراره هنا وهو أن ثلاثة من بلدان البلقان تعيش فيها أغلبية مسلمة، وهي عين البلدان التي لم تبدأ بعد في عملية المفاوضات من أجل الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وهي دول البوسنة والهرسك وكوسوفو وألبانيا. في حين أن البلدان الثلاث الأخرى المتبقية: صربيا والجبل الأسود ومقدونيا، تعيش

فيها أقلية مسلمة لا يقارَن حجمها بعدد السكان المسيحيين الأرثوذكس.

كما يضيف موقف المماطلة الذي ينتهجه الاتحاد الأوروبي إزاء قبول عضوية تركيا فيه دليلاً إضافيّاً على رفض أوروبا لعضوية الدول الإسلامية أو الدول ذات الأغلبية المسلمة بحجة تخوفه من أن تكون أكبر دولة أوروبية بأغلبية غير مسيحية! وقبلت مؤخراً عضوية بلغاريا ورومانيا في الاتحاد الأوروبي وبشكل سريع، رغم أنهما لا يتوافران على كل الشروط المطلوبة أوروبيّاً؛ ما جعل عدداً من المختصين يعتبرونه موقفاً عدائيّاً موجهاً ضد الإسلام على الأرض الأوروبية.

فهذا التصرف المخالف لقوانين وقواعد قبول عضوية البلدان في الاتحاد الأوروبي رأى فيه عدد من المعنيين دليلاً على حالة «الإسلامو فوبيا» التي تعيشها أوروبا وتتصرّف على ضوئها، فبانتماء بلغاريا ورومانيا إلى الاتحاد الأوروبي، ضُرِب حزام سياسي واقتصادي وأيديولوجي بين تركيا وباقي بلدان البلقان وفي نفس هذا الاتجاه يمكن تفسير قبول عضوية كرواتيا، التي تفصل جغرافيا أوروبا المسيحية عن باقي دول البلقان الستة الأخرى، بما يضع المزيد من الصعوبات أمام سعي دول البلقان لعضوية الاتحاد الأوروبي.

كما يمكن أيضاً النظر إلى تسريع عملية قبول عضوية كرواتيا على أنّه رغبة أوروبية في أن تلعب هذه الدولة دوراً إضافيّاً يتمثّل في حماية أوروبا من الإسلام البلقاني، وعزل دول البلقان الستة الأخرى وسد الطريق أمام بلوغها عضوية الاتحاد الأوروبي.

ولا بد من التذكير هنا بأن كرواتيا كانت قد تقدمت بطلب عضوية الناتو في نفس الوقت مع مقدونيا وألبانيا اللتين ما زالتا تنتظران وستنتظران طويلاً قبل حصولهما على الرد من بروكسل.

الخوف الإسلامي من الاتحاد الأوروبي:

لكن النسبة العالية لأعداد المسلمين في هذه المنطقة ذات الخلفية الثقافية الإسلامية لقرون عديدة، جعلت من البوسنة وجزءاً من صربيا والجبل الأسود

(السنجق) وكوسوفو ومقدونيا منطقة حذر بالنسبة للاتحاد الأوروبي، وصعّبت من عملية التحاق هذه البلدان بالنادي الأوروبي[١].

ولأن المسألة تتعلق بموقف سلبي، أو على الأقل «متحفظ»، فإن هذه البلدان ذات الكثافة السكانية المسلمة ظلت متخلفة عن جاراتها في السباق نحو الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، بقطع النظر عن الجهود التي بذلتها في سبيل ذلك على طريق الاستجابة لشروط العضوية.

تبقى ألبانيا تشكّل الاستثناء رغم أن نسبة المسلمين فيها تبلغ ٨٠٪؛ فألبانيا تُعرف أوروبيّاً ودوليّاً على أنها دولة علمانية مع تطفيف التأثير المسيحي الروماني في تاريخها والتقليل من التأثير الإسلامي فيه. وهذا بدوره لم يمنع من أن تُعامَل ألبانيا بنفس الأسلوب فيما يتعلق بمسألة عضويتها للاتحاد الأوروبي، وإن كان بشكل غير واضح تماماً مثلما هو الحال مع جاراتها المسلمة. وأخيراً، إن هذا التوجه المحكوم بالتشدد الأيديولوجي والتركيز على نقاط التصادم والتنافر لن يسمح بتنقية الأجواء في الفضاء الأوروبي، والبلقان جزء لا يتجزأ منه، وإنما مصير كل الشعوب والدول الأوروبية يبدو واحداً، ولتحقيق هذه الوحدة فإنه من الضروري تجاوز كل تلك الأحقاد والحسابات السياسية والأيديولوجية والتصالح مع الوقائع والتاريخ الحقيقي للمنطقة والعمل المشترك من أجل بناء مصير موحد للجميع، وإلا فإن المنطقة ستظل على ما هي عليه. على أوروبا أن تتقبل الاختلاف داخلها وتسمح بالتعددية الدينية واللغوية والثقافية وأن تترك المجال لحق شعوبها قاطبة في التأكيد على هوياتها المختلفة لما فيها من إثراء للقارة ولشعوبها.

الاستنتاج والخاتمة:

١ ـ إن ماضي وحاضر ومستقبل البلقان يتطلب ألّا تُترك هذه الشعوب لوحدها إلى حين تهدأ النزاعات الموروثة والراهنة. «أن تدمير الأيديولوجيات

(١) محمد م. الأرناؤوط، نزاعات البلقان والتطهير العرقي من الدانوب إلى الأدرياتيكي، دار الفتح، ط٢، دمشق، ١٩٩٨م.

القومية التي حكمت الناس قرابة ٢٠٠ عاماً، هو الذي يعبد درب حسن الجوار والسلام المستقر».

٢ ـ لقد أنهى سقوط الاتحاد السوفييتي وتشظّيه إلى دول عدة سيطرة المركز على الأطراف وإلى الأبد، كما وضع هذا الانفجار حدّاً لعمليات التهميش التي عانى منها المسلمون، خاصة على مستوى الهوية الدينية والإثنية والقومية، ويبدو أن فترة الاضطراب والتذبذب هذه ستستمر لعقود طويلة يغذيها الانهيار الاقتصادي غير المسبوق الذي يضرب بلدان البلقان.

٣ ـ كما ظهر اليوم إلى السطح عديد من الخطابات التي تكتسي صفة الإسلامية في الطرح والتحليل مصدرها جماعات إسلامية مختلفة، بحسب البلد الذي تصدر عنه والجهة الداعمة له، سواء كانت عربية أو فارسية أو تركية، دون أن تقدّم أطروحات مبنية على دراسات جادة لرسم إستراتيجية واضحة لمستقبل الأقليات المسلمة في منطقة لا تعرف الاستقرار إلا لتعاود الدخول في صراعات يغلب عليها الجنوح المفرِط إلى تصفية الآخر المختلف، وقد كان المسلمون في هذه المعادلة غير المتكافئة الحلقة الأضعف والأكثر عرضة للتصفية العرقية.

٤ ـ ومهما يكن من أمر فإن مسلمي البلقان، ما عدا أولئك الذين يعيشون في ألبانيا، سيظلون أقليات دينية وإثنية تعيش داخل بلدان تعادي الإسلام وترغب في إنهاء وجوده أو على الأقل إبعاده عن الحياة العامة للمجتمعات البلقانية. وفي رأيي، فإن ذلك الحوار غير المتكافئ بين السلطات في البلدان البلقانية والأقليات المسلمة الخاضعة لها ستفضي إلى إرضاء نسبي للجماعات المسلمة، لكنها ستحملهم عاجلاً أو آجلاً على إظهار عدم رضاهم وبالتالي عودة الاحتقان وربما التصادم مع تلك الحكومات وهو الأرجح.

وبالتالي؛ فان اندماج دول البلقان في أوروبا والتحول إلى المجتمع الديمقراطي لا يمكن الوقوف أمام مشاكل هذه البلاد العرقية والمذهبية كي لا تكون عنصراً جديداً في تفجير صراع محتمل في البلقان الذي لا تزال ناره تحت الرماد طالما أن تاريخ البلقان كان جديراً بتفجير حروب عالمية أولى

وثانية، وبالأخص فان الاندماج الأوروبي تم بناءه على أساس عدم التعرض للقومية والمذهبية فكيف يمكن لدول هذا الاتحاد التي أنهت صراع دموي فيما بينها وتخطت القومية والمذهبية وألا ثنية واللغة والتاريخ لتضع أساس الوحدة من خلال الاندماج الاقتصادي لتعود وتقع في بحر البلقان مجدداً ومشاكله القديمة.

إن عملية تسريع الاندماج لدول البلقان في الاتحاد الأوروبي قد يعد تأهيلها ثقافيّاً وحضاريّاً واجتماعيّاً ودينيّاً ويسقط مفهوم العرق والمذهب واللغة والقومية ضمن إعادة طرح مفهوم المواطنة الفعلية لشعوب هذه الدول التي غابت عنها طويل وعاشت تاريخها الطويل على الحروب والدمار، فتسريع الاندماج ليس لخدمة طبقات معينة تستفيد اقتصاديّاً في هذه الدول بل لصاح سكان هذه الدول لكي يتمكّنوا من الاندماج الحقي في عالم المستقبل والاستفادة من التجارب الأوروبية.

